



التربية على الشفقة والرحمة

مر هدي رسول الله
صلّى الله عليه
وسلم في التربية

ذ. عبد الله الهلالي

أخرج الإمام البخاري¹ في صحيحه قال: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن أنه حدثه أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمّن فيها فأنا آخذ بحُجْزكم عن النار وهم يقتحمون فيها". هذا الحديث العظيم أخرجه الإمام البخاري في كتاب الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة، في باب الانتهاء عن المعاصي.

1 - تقديم الحديث:

هذا الحديث الجليل القدر يلقي الضوء على جانب مهم من رسالة الرسول الكريم ووظائفه. إذ من وظائف الرسول تبشير وبشارة الطائعين بالجنان والمغفرة وإنذار الكفار والمذنبين والعصاة بالنار والعذاب الأليم (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) سورة الفتح. بل النذارة والتخويف من عذاب الله هي وظيفة لجميع الأنبياء. قال الله تعالى عن سيدنا نوح (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن انذر قومك من قبل أن ياتيهم عذاب أليم قال يا قومي إني لكم نذير مبين) سورة نوح.

كما يبين الحديث الشريف هذا، جانبا مهما من رحمة وشفقة هذا الرسول الكريم على أمته، مصداقا لقول الله تعالى في حقه: (حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) سورة التوبة.

وهذا الحديث ورد في الكتب الصحاح، متفق على صحته.

1 - صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الجزء 8، ص 127

جاء هذا الحديث في رواية لمسلم بصيغة: مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها. وأورد الإمام مسلم الحديث مرة أخرى في كتاب الفضائل.

كما أورد الإمام البخاري الحديث في كتاب أحاديث الأنبياء² عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه يقول: مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فجعل الفراش وهذه الدواب تقع في النار.

كما أخرج الحديث الإمام أحمد بروايات مختلفة منها مثلي ومثلكم أيتها الأمة كمثل رجل أوقد ناراً بليل فأقبلت إليها هذه الفراش والذباب التي تغشى النار فجعل يذبها ويغلبنه إلا تقحما في النار وأنا آخذ بحجزكم أدعوكم إلى الجنة وتغلبوني إلا تقحما في النار وخرج الإمام أحمد³ أيضاً من حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال مثلي ومثلكم كرجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجناد يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي. وخرج البزار والطبراني من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أنا آخذ بحجزكم فاتقوا النار اتقوا النار اتقوا الحدود فإذا مت تركتم وأنا فرطكم على الحوض فمن ورد قد أفلح فيؤتي بأقوام ويؤخذ بهم ذات الشمال فأقول رب أمتي فيقول أنهم لم يزالوا بعدك يرتدون على أعقابهم وفي رواية للبزار قال وأنا آخذ بحجزكم أقول إياكم وجهنم إياكم والحدود إياكم وجهنم إياكم والحدود إياكم وجهنم إياكم والحدود وذكر بقية الحديث.

2- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1989، الجزء 6، ص 566.

3- الكنز الثمين في أحاديث النبي الأمين، أبو الفضل محمد بن الصديق الحسني، عالم الكتب، بيروت، ط 2، 1983، ص 534.

2- راوي الحديث:

اختلف كثيرا في اسم أبي هريرة واسم أبيه قال ابن إسحاق⁴: " قال لي بعض أصحابنا عن أبي هريرة: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن، وكنيت أبا هريرة" ونسبه ابن الكلبي⁴: أبو هريرة بن عامر بن ذي الشري بن ظريف الدوسي . وقال النووي⁵ "في مواضع من كتبه اسم أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر على الأصح من ثلاثين قولاً".

كان من أهل الصفة. أسلم يوم خيبر كما جاء عند الإمام الذهبي⁶. كان أبو هريرة ممن روى كثيرا عن الرسول عليه الصلاة والسلام. وعد من المكثرين وممن دعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم. يحكي عن حفظه وما خصه به الرسول من علم فيما رواه الشيخان⁷: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءينأما أحدهما فبثثته في الناس وأما الآخر فلو بثثته لقطع البلعوم". والمعتمد في عام وفاة أبي هريرة قول هشام بن عروة⁸ "سنة سبع وخمسين هجرية".

3- مفردات:

أعتمد في هذا الموضوع على رواية الإمام البخاري. - استوقد⁹: "أوقدت النار واستوقدتها إيقادا واستيقادا. وتوقدت النار واتقدت واستوقدت كلها بمعنى هاجت" وجيء بالسين والتاء للإشارة إلى السعي والجهد المبذول في إيقاد النار.

4- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ج 7، ص 349.

5- الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط، 1995، ج 4، ص: 1914.

6- سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين الذهبي، دار الفكر، دمشق، مطبعة الرسالة- القاهرة، 1982، ج 2، ص 589

7- الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية، سعيد حوى، ج 4، ص 1919

8- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ج 7، ص 354 الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ج 7، ص 349

- الفراش:

بفتح الفاء، اسم لنوع من الطير له أجنحة أكبر من جثته. وهو سريع الحركة والانتشار والتهافت على النار. وقد شبه الله تعالى الناس يوم الحشر بالفراش المبعوث في الانتشار والهيجان فقال تعالى: (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) سورة القارعة.

ويضرب به المثل في الطيش المؤدي للهلاك¹⁰ فيقال: أطيش من فراشة.

- ينزعهن:

وردت في أحاديث بدون نون: يزعهن، وفي أحاديث أخرى: يحجزهن، قال ابن حجر¹¹: يدفعهن ومن معانيوزع التي تتفق ومعنى الحديث¹² "وزع الإنسان وغيره يزعه وزعا كفه ومنعه وحبسه، وأيضا زجره ونهاه".

- يقتحمن:

أصله: قح¹³ "القاف والحاء والميم أصل صحيح يدل على تورّد الشيء بأدنى جفاء وإقدام يقال قح في الأمور قحوما رمى بنفسه فيها من غير دربة" وعند ابن منظور¹⁴ "قح الرجل في الأمور واقتحم وانقحم، وهما أفصح: رمى بنفسه فيه من غير روية. تقتحمون في النار: تقعون فيها" إذن يقتحمن يدخلن ويندفعن بدون روية كمن يرمي نفسه.

- حزكم:

بضم الحاء وفتح الجيم، مفرد حجرة بضم الحاء وسكون الجيم، وهي¹⁵ "موضع شد الإزار من الوسط وموضع التكة من السراويل" وهذا التعبير أبلغ في تصوير مدى الحرص والشفقة. - أخذ¹⁶ "قال النووي: روي باسم الفاعل، ويروى بصيغة المضارعة من المتكلم".

9- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج 3، ص 465.

10- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إشراف عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، ط 1، طهران، ج 2، ص 688.

11- الفتح الباري، ج 11، ص 385.

12- المعجم الوسيط، ج 2، ص 1040.

13- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1991، المجلد 5، ص 61.

14- لسان العرب، ج 12، ص 462.

15- المعجم الوسيط، ج 1، ص 158.

4 - من معاني الحديث:

- أورد الإمام البخاري هذا الحديث في باب: الانتهاء عن المعاصي وكأن من المعاصي الإلقاء بالنفس في المهالك والارتقاء في المعاصي بالرغم من تحذيرات الرسول الكريم وحرصه الشديد على أن لا يدخل النار أحد من أمته
- أما الإمام مسلم فأورد الحديث في كتاب الفضائل، باب شفقتة على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، كأن من أكبر الضرر أن يلقي الإنسان بنفسه في المعاصي ويخالف تعاليم الرسول الكريم.
- في هذا الحديث الشريف يضرب لنا الرسول الكريم مثلاً رائعاً لحرصه على أمته وخوفه أن يقعوا في النار والمقصود الأعمال التي تؤدي إلى النار. وتلك من صفاته: (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم).
- قال ابن حجر¹⁷ " شبه الرسول صلى الله عليه وسلم تهافت أصحاب الشهوات في المعاصي التي تكون سبباً في الوقوع في النار بتهافت الفراش بالوقوع في النار اتباعاً لشهواتها وشبه ذبه العصاة عن المعاصي بما حذرهم به وأنذرهم بذب صاحب النار الفراش عنها".
- قال القاضي عياض¹⁷ "شبه الرسول تساقط أهل المعاصي بتساقط الفراش في نار الدنيا".
- يصور هذا الحديث جانباً من نفسية الإنسان وهو يلقي بنفسه في التهلكة وفي النار دون روية ولا تعقل وقد استعمل الرسول عليه السلام أفضل الألفاظ الدالة على ذلك: يقتحمن، يقتحمون الدالة على الاندفاع.
- بين لنا في تشبيهه بديع كيف يغفل الإنسان عن مصلحته وتسترقه الأضواء وينخدع بالنار المحرقة تماماً كالفرش الذي يتهافت على النار من شدة ما يطوف عليها ويقترّب منها.

16- الفتح الباري، ج 11، ص 386

17- الفتح الباري، ج 11، ص 386

- في تصوير رائع يبين الرسول الكريم كيف يمنع الناس من السقوط في النار والناس لا يبالون فيأخذهم عليه الصلاة والسلام من حجزهم وهم يتفلقون سقوطاً في النار واحداً تلو الآخر.
- مخالفة أمر الرسول ومنهجه لن يؤدي إلا للدمار والفتنة والهلاك والعذاب الأليم. قال الله تعالى في هذا الشأن (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) سورة النور.
- وقد رأى الصحابة ذلك عياناً في غزوة أحد عندما خالف الرماة أوامر الرسول الكريم، وكانت النتيجة أن انهزم المسلمون بعدما كانوا منتصرين في أول المعركة.
- من أصر على المعصية والغواية والضلال، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يغني عنه شيئاً ولا يملك له نفعاً ولا ضراً، وقد قال الله تعالى لرسوله يبين لنا ذلك: (ليس لك من الأمر شيء) وقال تعالى: (وما على الرسول إلا البلاغ).
- قد يعيش الإنسان مواقف ولحظات ضعف لا يدرك فيها مصلحته ولا عاقبة الأمر من ذلك العمل، فيأتي دور الناصحين والمربين والمرشدين والمصحوبين ليبيّنوا وينصحوا ويرشدوا ويحذروا ويأمروا وينهوا.

5- أهمية تربية الرحمة والحرص والشفقة:

- إن الرحمة بالخلق والحرص على ما ينفعهم والشفقة عليهم خلق رفيع، وعامل من عوامل رقي المجتمعات وتحقيق التعايش والأمن الاجتماعي والنفسي لدى الأفراد والمجتمعات.
- يتجلى أثر هذا الخلق على الفرد الذي يمارس هذا السلوك / الخلق من حيث:
- *الإحساس بالمسؤولية:
- الإنسان الحر الأبوي الواعي تتعدى المسؤولية عنده إلى المسؤولية على الآخرين بالتضامن والتكافل وتقديم العون والنصح لمن هم في حاجة لذلك. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم "الدين النصيحة"¹⁸.

18- رواه البخاري والترمذي عن ثوبان، الكنز الثمين، ص 286، الحديث: 1803

***تحقيق كمال الإيمان:**

من تمام الإيمان محبة الخير للمسلمين جميعهم.وقد قال النبي الكريم: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه." ومن الإيمان إماطة الأذى عن طريق المؤمنين، ودفع الضرر عنهم حسيا كان أو معنويا. وهل يوجد ضرر أكبر وأخطر على الناس من الوقوع في النار التي تجب على العصاة والمذنبين؟

***إسداء المعروف للناس:**

إن التعود على الرحمة بالخلق والشفقة عليهم تدعو إلى اصطناع المعروف وتقديم البر والخير للناس جميعا. وقد ورد: "الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنضعهم لعياله".

***كسب قلوب الناس:**

الإحسان إلى الناس، والعمل على ضمان مصالحهم، والخوف الصادق عليهم من غوائل الدهر ومن سوء العاقبة في الدنيا والأخرى، يكسب قلوب الناس ويزيد من محبتهم وتقديرهم له. والله در القائل¹⁹.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان.

***تحقيق الأجر والرضا مع الله تعالى:**

إن كل عمل خير لا يضيع أجره عند الله تعالى. وعمل الخير كيفما كان عبادة يؤجر عليها الإنسان. (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) سورة الزلزلة (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) سورة الكهف.

***إقامة فريضة النصح والتبليغ:**

نصح الناس وتبليغ أمر الله ودعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا شك أنها من الفروض الكفائية التي تأثم الأمة جميعا بتركها. وهي وظيفة الأنبياء وورثتهم العلماء والمربون والمدرسون.فمن قام بذلك فقد أبرأ ذمته وأدى ما عليه (وما على الرسول إلا البلاغ).

19-من قصيدة وعظية لأبي الفتح البستي، قرص : الموسوعة الشعرية

ولا يخفى أثر الحرص على منفعة الناس والشفقة عليهم في المجتمع. فذلك استمرار للنصح والتوجيه الذي هو بمثابة صمام أمان في المجتمع، ومؤشر من مؤشرات يقظة الدعاة والمربين. فقط على من يوفق لتقديم النصح وما فيه منفعة الخلق، أن يدرك أن الاستجابة وتحقيق المقصود بيد الله تعالى ولكل شيء أجل إن المجتمع الذي يوجد وينتشر فيه من يحرص على منفعة الجميع ومصالحهم، يسوده ولا شك الاستقرار والتحاب والأمن الاجتماعي.

6 - من الدروس التربوية المستفادة من الحديث:

إن هذا الحديث النبوي الشريف غني بالمعاني والعبر والدروس، وأقتصر منها على:

- ✓ من مواصفات المربي الناجح التآني والتؤدة، والنظر في عاقبة الأمور. وكم من شبابنا هو في حاجة لأن يغرس فيه هذا الخلق الرفيع بالإسوة والنموذج.
- ✓ إن من مهام العلماء والمربين والأولياء العمل الصادق على إنقاذ الناشئة من سلبات المدنية الحديثة: من إغفال للأخرة، والسقوط في الانحراف من فساد وتعاطي الخمر والمخدرات، أو انقطاع عن الدراسة وسوء الخلق وكل ما له عاقبة سيئة في حياة المتعلمين.
- ✓ في غياب الرحمة والشفقة من أخلاق المعلمين والمدرسين، لن يستفيد المتعلمون، ولن يحدث ما يسمى بالتواصل القلبي الوجداني. وما أكثر حالات الانحراف والهدر المدرسي والرسوب بسبب غياب الرحمة من معاملات المدرسين. وقد شهد الله تعالى بأهمية هذا الخلق الكريم: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) سورة آل عمران.
- ✓ الشفقة على المتعلمين والرحمة بهم، من الدين والمعلم يقوم مقام الوالد وحق المتعلمين عليه كحق الأولاد على آبائهم. وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسوة والقُدوة الحسنة، فقد قال: ²⁰ "إنما أنا لكم مثل الوالد لو لده".

20- رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه

وما فشل كثير من الأنظمة التربوية التعليمية في بلاد المسلمين، إلا لتدهور الجانب الخلقي وغياب الرحمة والشفقة في الفعل التعليمي من هؤلاء، وغياب الاحترام والتعظيم من أولئك.

✓ مما يعاب على كثير من المربين والمدرسين والعلماء: غياب الإحساس بالأمانة والمسؤولية لديهم، بالرغم من قيامهم بأعمالهم اليومية التقنية. فابناء الأمة أمانة في أعناقهم يسألون عنها يوم القيامة. ويقول الله تعالى محذرا من خيانة الأمانة: (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) سورة الأنفال .

أهمية ضرب الأمثال في نجاح العملية التربوية التعليمية، وفي نجاح التواصل والتفاهم. ولقد ركز القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على هذا الأسلوب الناجح. فنجد في القرآن الكريم.

- (ضرب الله كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)

سورة ابراهيم.

- (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) سورة الكهف

- (وضرب الله مثلا للذين كفروا) سورة التحريم.

ونجد في الأحاديث النبوية:

- مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره²¹.

- مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى

هذه مرة²².

وإن ضرب الأمثال لتثير انتباه المتعلمين سريعا وتشدهم إلى الدرس

وتساعدهم على الترسيخ والاستذكار. كما أنه يدخل في إطار مخاطبة الناس

بما يفهمون.

✓ ضرورة إلحاح المربين والدعاة على هداية وإرشاد أتباعهم

وتلاميذتهم، لأن كثيرا من الناس يجهلون مصلحتهم ولا ينظرون إلى الأفق

21- مصابيح السنة، الإمام البغوي، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1978، ج 4، ص 233.

22- مصابيح السنة، الإمام البغوي، ج 1، ص 126. العائرة= المترددة والعائرة.

البعيد، فتراهم سريعي ردود الأفعال مما يفوت عليهم الكثير من منافعهم ومصالحهم.

✓ أهمية الصبر على المتعلمين و على الأتباع. وقد ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المثال الواضح: وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيها وفي رواية تقتحمون فيها. لم يكتف صلى الله عليه وسلم بالقول والأمر، وإنما أخذ ينتشل أفراد أمتة واحدا واحدا. ينقذهم وهو يجذبهم من حجزهم. وهذه استعارة عجيبة للتعالم والأوامر وما جاء به صلى الله عليه وسلم.

✓ على المربين والعلماء والدعاة أن يعلموا من معهم الاقتحام الإيجابي: اقتحام العقبة إلى الله تعالى (فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة) سورة البلد. نقيض الاقتحام أي الارتقاء في المهالك والردى والمعاصي.

✓ إن سعادة النشء، بل سعادة الناس جميعا في اتباع هذا الرسول الكريم وإحياء سنته ومحبهه والكينونة معه. وإن الشقاوة كل الشقاوة في مخالفته والإعراض عن تعاليمه، واتباع الهوى والنفس والشيطان.

7 - خاتمة:

إن أنجح الأساليب في التوجيه والنصح والتربية والتعليم، هو أسلوب الرحمة والشفقة، وإشعار المتعلم بالحنو والعطف والحرص الصادق عليه. وإن الأساليب النبوية في التربية والتعليم، ناجعة وصالحة لكل زمان ومكان. وإن اعتمادها اليوم ليعد وبحق جزء من اتباع الرسول الكريم والافتداء بسنته. ولنعلم جميعا، ونضع نصب أعيننا، أن المربي والمعلم الأول سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مدحه الله تعالى ووصفه بقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) سورة التوبة.